جامعة دمشق أو جامعة الأردن أو غيرهما ـ هم الذين التحقوا بالثورة حين بدأت في حزيران. والواقع أنّ مواهبهم قد تفتّحت حين كانوا على الجبهة، وفي المخيّمات، وفي معسكرات التدريب. فإنّك لتشعر، إذْ تقرأ أشعارهم، بنبرة شديدة التفاؤل والشجاعة. إنّها النبرة عينها، في الواقع، التي سمعناها وقتاً طويلاً قادمةً من داخل الأراضي المحتلّة والتي افتقدناها ـ لحدّ الآن ـ في أدب المنفيّين.

تلك هي بشكل عام صورة تطوُّر شعر المقاومة بين الفلسطينيّين المنفيّين.

الغريب في الأمر أنّ الشعر القادم من الأراضي المحتلّة كان كليّ المغايرة. فبعد حزيران ١٩٦٧ لم يمرّ هذا الشعر في مرحلة سلبيّة. وإنّي لأذكر، مثلاً، قصيدةً لمحمود درويش في نهاية حزيران، بعد عشرين يوماً من الهزيمة. [كان محمود آنذاك ما يزال في فلسطين ـ **الآداب**]. وفيها يقول ما مفاده إنّه سوف ينتظر إثمارَ حقله رغم أنّ هذا لم يحصل في الموسم الماضي. وأمّا توفيق زيّاد فقد كتب قصيدة يقول فيها إنّ الحصان لم يُكمل السبق لكنه سوف يفعل هذا بعد هنيهة.

وهكذا نجد أنّ الشعراءَ لم يتخلّوا عن الأمل لأنّهم كانوا منخرطين في النضال منذ بدئه.

علينا أن نلاحظ أنّه على الرغم من حصول تلك التحوّلات الإيجابيّة فإنّ ثمّة حملةً حقيقيّة في «اسرائيل» ـ حملةً تربويّة ـ تهدف إلى التقليل من أهمّية تراث الأدب العربي. فالحكومة الاسرائيليّة قد نشرت أدباً عربيّاً سخيفاً وعدميّاً، ومجلّاتٍ وروايات جنسيّة، بهدف الحطّ من قدر الأدب العربي.

وبالطبع يقول الاسرائيليّون أنْ ليس ثمّة مشكلةً في أن ينشر كاتبٌ عربيّ جيّد أعماله الأدبيّة؛ فالحقّ أنّ هذا هو المنطق الاسرائيلي في تبرير وجوده. الاسرائيليّون يقولون أنْ لا مانعَ لديهم في أن يعبر العرب أو أيُّ أناس آخرين عن أنفسهم شعراً وروايةً وغير ذلك. غير أنّ الحكومة الاسرائيليّة تتدخّل حين يصل شكل المعارضة هذا إلى مرحلة التعبئة السياسيّة. علاوةً على ذلك فإنّنا يجب أن نلاحظ أنّ الاسرائيليّين حين يسمحون بنشر هذه الأشعار فإنّ ثمّة رقابة لا تزول عنها فرضها الحاكمُ العسكري. فأنت لو نظرتَ إلى الكتب التي ينشرها الشعراءُ الفلسطينيّون في الأراضي المحتلّة فإنّك ستجد في الغالب أنّ ثمّة مقطعاً ناقصاً، أو أنّ ثمّة شعراً لا خاتمة له! وفي قصيدة لدرويش مثلاً يطلبُ من امرأة يحبّها أن تأخذه تحت عينيه، وأن تجعل منه حجراً في بيتها؛ غير أنّ هذا ما تقرأه منشوراً فحسب؛ فالواقع أنّني تلقّيتُ نسخةً أصليّة من القصيدة واكتشفتُ أنّ لها نهاية يطلب الشاعرُ فيها من حَبيبته أن تجعل منه حجراً لبيتها من أجل أن يعرف الجيلُ القادمُ السبيلَ للعودة إلى البيت. وهكذا تجد أنّ الرقابة حَذفَت البيتيْن الآخرين اللّذيْن أعطيا للقصيدة كلّها معناها الحقيقي.

وأحياناً يَرفض الحاكم العسكري كتاباً كاملاً. وإذا أصرّ الفنّان على عمله فإنّه من الممكن أن يُعتقل. بل إنّ معظم شعراء الأرض المحتلّة قد قضوْا زمناً في السجن أو تحت الإقامة الجبريّة.

أحياناً يرسلون بشعرهم خارج الوطن لننشره نحن. وكان هذا أمراً صعباً جدّاً أوّل الأمر، لأنّ العرب داخل الأراضي المحتلّة لم يثقوا كثيراً بأولئك العرب الذين يحيون خارجاً. وكنت أنا أوّل من عرّف بأدب الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة في العالم العربي، عام ١٩٦٤/ ١٩٦٥. وكان كتابي آنذاك صدمةً؛ فلم يقبل به أحدٌ أوّلَ الأمر لأنّ الجميع ظنّوا أنّ ثمّة خدعةً ما. لكن أعمال شعراء الأرض المحتلّة ما لبثت أنْ قُبلت ورُحّب بها ترحيباً عظيماً.

الميدل ايست انترناشونال،
نيسان ١٩٧٥، ص ٢٥ ـ ٢٨.
ترجمة الآداب

حين ولد فائز...

أطالب نفسي بحقّك عليّ!(*)

قبل منتصف الليل بساعةٍ ونصف وُلِد فائز..

وحين هتفت الممرِّضةُ تقول «مبروك»، أحسستُ به، فائز، يقع فوق كتفيّ.. وللحظات أحسستُ بشيءٍ يشبه الدُّوار، وفي صخب المشاعر التي كانت تجتاحني أحسستُ بأنّني مرتبطٌ أكثر بهذه الأرض التي أمشي عليها؛ كأنّ وقوعه فوق كتفي قد غرسني عميقاً في التراب..

وفي الصبح حملته الممرِّضةُ وعرضته أمام عينيَّ من وراء الزجاج، وبدا لي قطعةَ لحمٍ حمراء غبيّة، مغلقة العينين مفتوحةَ الفم راعشة الكفّيْن.. عينان أمامهما الكثير لترياه.. وفم عليه أن يمضغ طويلاً، وكفّان لا يدري أحد أهما للعطاء أم للأخذ أم لكليهما؟

قال لي الطبيب الواقف إلى جانبي:
ـ ما هو شعورك؟
ـ لا شعور لديّ..
ـ أبداً؟
ـ أبداً..

(*) عثرنا على هذه المقالة في بعض يوميّات غسّان كنفاني؛ وليس للمقالة عنوان.

كأنّني كنت أقول لنفسي إنّ في الوقت متّسعاً لملايين من المشاعر، متّسعاً للغضب والفرح والمفاجأة والخيبة والسعادة والشقاء والضحك والأسى والحبّ والكره والانتظار والملل.. ملايين من اللحظات المترعة بغزارة كلّ ما في هذه الأرض من تناقض..

وفي الغرفة الأخرى كانت أُمّه ملقاةً فوق الفراش. لقد نسيتْ كلّ الآلام التي اجترعتها في سبيل أن يولد، نسيتْ كلّ الدموع التي أهرقتها في العشرين ساعة الماضية، نسيت كلّ شيء. كأنّ الحُبّ الجديد الذي ملأها فجأة، حين قالوا لها إنّها وَضَعت، الحبّ الغزير الذي لا يمكن أن يحمله إنسانٌ لإنسان إلّا الأمّ لابنها.. كأنّ هذا الحبّ قد غسل كلّ شيء بيدٍ أسطوريّة..

وبينهما، هو بين يدي الممرِّضة وراء الزجاج، وهي في سريرها غير قادرة على أن تخطو لتراه معي، كنت أقف أنا مغسولاً بالحبّ والخوف، صافياً كأنّني من زجاج: ليس ثمّة أيُّ شيءٍ أفكّر به أو أهتمّ له، مجرد رجل يقف مثل ملايين الرجال الذين لا يعرفون حقيقةَ المستقبل، عاجزاً ضئيلاً صغيراً أمام المجهول الذي يطوّقه بزوجةٍ يريد أن يُعطيها ماءَ عينيْه، وولدٍ يريد أن يهبه نبضَ شرايينه.. واقفاً هناك كما لو أنّ المشاعر الجديرة بأن يحملها أثقلُ من أن يحملها، فتركها تحوّم حوله كهواء له صوت وله رائحة وله ثقل، تمسُّه كما تمسّ الحجر وتغوص في كيانه حتّى ليجهل أهو الذي نفثها أم هي التي نفثته..

وحين أنامته الممرِّضةُ من جديد خطوتُ عائداً إلى غرفة زوجتي.. ولكن ما إن سمعتُ صوتَ خطواتي حتى عدتُ إلى عالمي، عالمٍ جديد مطوّق بشيء اسمه حُبٌّ حقيقيّ.. حبّ لا إلزام فيه ولا جزاء.. حبٌّ لذاته، بلا تعويض بلا بديل بلا ثمن بلا خوف، حبّ صافٍ لم أحسّ به أبداً من قبل، أبداً أبداً، حبّ لذلك الطفل الذي وُلد مني، بسببي ومن أجلي، وكان ثمنه حبّي لها، وحبّها لي، ليس غير.. حبّ لا غاية له ولا هدف، حبّ مترع بالعطاء، يطوف في صدري حتّى أحسّه ينسكب في جسدي كما لو أنّه ينضح ندىً فيبتعث فيّ فرحةَ العطاء الحقيقي الذي لم يلوّث بعدُ بتعقيداتِ الحياة، بقانون «خُذْ وهات»، وقانونِ «أنت وأنا»، وقانون «أين ولماذا وكيف».. مجرّد عطاءٍ محض غير مشوبٍ بأيّ سؤال أو طلبٍ أو انتظار أو تلكّؤ أو تردُّد.. مثل ماذا؟ مثل لا شيء، مثل ذاته ليسَ غيرُ.. لو قُدّرَ لنبعةِ الماء أن تُحسّ، إذن لأحسّتْ ذلك الشعور، العطاءَ المحضَ الذي يُخلقُ من جديد كلّما شرب عابرٌ من مائها..

وحين نظرتُ في عينيْ «آني» فهمتُهما، ولست أدري لماذا أوشكتُ أن أبكي، بل إنّني أحسستُ بالدموع تطوّفُ في حلقي مثل الغصّة.. وبذلتُ كلّ طاقتي لأقول أيَّ شيءٍ. عبثاً!. لم يكن في لساني إلّا ذلك التساؤلُ الغبيّ: إذا أعطيتُم الطفلَ حقَّ البكاء حين يولد، أفلا تعطونني هذا الحقّ حين أُولد أنا بولادته؟ أليست كلُّ الأيّام التي خلّفتها وراء ظهري قد ذابت الآن؟ ألا يحقّ لي أن أفعل كلّ الذي أشاء وقد عثرتُ على قطعةِ السكّر في قاع الكأس الذي اجترعتُ مرارته كلَّ شبابي؟؟

ولكنّك كنت وراء الزجاج يا فائز، بيني وبين لمسك مثلُ ما بين اليوم واليوم.. نائماً هناك في غطائك الأبيض، تعني للمستشفى رقماً مربوطاً إلى زندك ليميِّزك من بين عشرات المواليد الذين يشاطرونك الغرفة.. وأمّا بالنسبة لي فإنّك تعني الحياة المزدوجة، حياتك، وحياتنا: أمّك وأنا..

أوَتدري متى بدأتُ أفكّر بك؟ أقول «أفكّرُ بك»، وقد أحسستُ بك كلَّ الوقت؟.

حدث ذلك حين دخلت الممرِّضةُ لتأخذ أمّك إلى غرفة أخرى:

ـ لماذا؟

ـ لأنّ هذه الغرفة خاصّةٌ بالدرجة الثانية، وأريد أن آخذ زوجتك إلى غرفة الدرجة الأولى..

ـ ولكنّها مسجّلة في الدرجة الثالثة!؟

ـ الثالثة؟ أوه، عفواً إذن، لقد حسبت أنّها مسجّلة في الدرجة الأولى..

عندها فقط جعلوني أُحسُّ بأنّني فقير.. وبأنّني لن أعطيك الحياةَ التي يستطيع غيري أن يعطيها لابنه.. ولأنّ هذا كلّه قد يعني لديك ـ غداً ـ شيئاً..

لا تحسب أنّني لا أريد أن يعني هذا لديك أيَّ شيء!. الأمر لا يتعلّق بك، إنّه يتعلّق بي أنا فقط.. لست أريد أن يشوب عطائي أيُّ ندم..

أنا، يا فايز، لا أطالبك بحقّ الأبوّة في المستقبل.. هذا الحقّ الذي لا قيمة له إذا طالب المرء به. إنّما أطالب نفسي بحقّك عليّ، وهذا هو كلّ شيء عندي الآن.. لقد اكتشفتُ الآن فقط أنّ كلّ شيء سيبدو تافهاً لو طالبتك بأن تعوّض لي سعادتي بأبوّتي لك.. ولكنّني لن أغفر لنفسي تقصيري بالمضيّ في هذه السعادة حتّى آخر الشوط، بلا مقابل، بلا تعويض. هذه قضيّتي أنا... أتعرف معنى هذا؟

.. وأنا أخرج من غرفة أمّك عرفت أيضاً معنى الهمّ.. ذلك العبء الذي يُثقل أكتافَ الرجال لأنّه ينبع من الداخل، عميقاً من الداخل، والذي يعطي الحياة ذلك الحافزَ النبيل الذي يفتقر إليه رجلٌ لا يعرف معنى العبء الذي ينبع من الداخل...